رَوائِع تُراث الزَّيديّة

التّوكل عَلى إلّه ذي الجَلال والرد على المشبهَة الضلّال

للإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم العَياني عليهما السّلام (ت ٤٠٤هـ)

مُنتزع من مَجمُوع كُتبه ورسائِله

تحقيق

إبراهيم يحيى الدّرسي

منشورات مركز أهل البيت (ع) للدراسات الإسلامية

كتاب التوكل على الله ذي الجلال والرد على المشبهة الضلال[١]

كلام المهدي لدين الله الحسين بن الإمام القاسم صلوات الله عليه وعلى أهل بيت رسول الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[معنى قولنا بأن الله في الأشياء]

قال المهدي لدين الله الحسين بن الإمام القاسم بن علي -صلوات الله عليه-: إن سأل سائل فقال: أخبروني عن الله تبارك وتعالى أهو في الأشياء يستحيل على الحقيقة أم لا؟

فالجواب له فيما عنه سأل من المحال: أن الدخول في الأشياء يستحيل على ذي الجلال والإكرام، وإنما هو في الأشياء بعلمه وإحاطته، وفوق الأشياء قاهر بقدرته، وليس دخول علمه كمداخلة الأجسام، وإنما هذا على مجاز الكلام؛ والأصل في ذلك أنه مثل من الأمثال، يُوصِلُ إلى دَرَكِ العلم بهذا المقال.

[العلة التي منعت عن إدراك ذات الله تعالى]

وكذلك إن سأل فقال: ما العلة التي منعت عن درك الذات؟

والجواب في ذلك: أنه لو أدرك لكان كسائر المدركات، ولما فرق بينه وبين المحدثات؛ لأن درك الحواس والعقول والأوهام، لا يقع إلا على جسم من الأجسام، أو صفة جرم من الأجرام، وما يتعالى عنه ذو الجلال والإكرام.

وأما ما سأل عنه من العلة المانعة عن درك القديم؛ فالعلة في ذلك عجز المحدثات عن إدراك الواحد الكريم، المتفضل الرحمن الرحيم[٢]، والعلل المانعة عن بلوغ الموجودات القديمِ وغيرِه من المصنوعات تخرج على وجوه معروفة وأسباب معاينة موصوفة.

---

(١) - هذا الكتاب من النسخة (ب).

(٢) - توضيح ذلك أن الله تعالى ليس من جنس ما يُرى فليس بجسم ولا عرض، والرؤية لا تقع إلا على ما كان كذلك. تمت من السيد العلامة/ محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله تعالى.

فمنها: علة الحجاب والأستار المانعة لدرك الأبصار.

ومنها: علة البعد عن الإفتراق، وعلة عجز الحواس والألباب.

فلو احتجب عن خلقه بالبعد لكان البعد له ساتراً، ولكان لذاته غامراً، ولو غمره لكان مغموراً، ولو كان مغموراً لكان صغيراً، ولو صغر لكان منقوصاً، ولكان بالقلة والنقص مخصوصاً، ولكان محتاجاً إلى الأستار، ومستو بالأمكنة والأقطار، ومنتفعاً بالظلمات والأنوار؛ فتعالى الله عما يقول الجاهلون، وينسب إليه الكفرة الظالمون.

[الدليل على منع الرؤية على الله تعالى]

ومما يدل على فساد قول المشبهة الملحدين ، الفجرة الجهلة الجاحدين: أنه لو كان يدرك بالأبصار لكان في قطر من الأقطار، ولو كان يحويه المكان والحدود لكان محدوداً منقطعاً، ولكان مفترقاً أو مجتمعاً، والمحدود له منقطع يدل على قاطعه، والإجتماع والإفتراق يدلان على مفرقه وجامعه، ومفتطره وصانعه؛ لأن المحدود يدل على محدوده، والمبعض عدد يدل على معدده، ولو كان كما وصف أهل الكفر والإلحاد، من الظهور في الآخرة والمعاد، والتجلي لأبصار العباد، لم يخل من أحد وجهين لا ثالث لهما ولا يوجد في العقول غيرهما.

إما أن يظهر كله فتصح له الحدود.

وإما أن يظهر بعضه فيدخل في التعديد، والله يتعالى عن التحديد، ويجل عن صفة العبيد[1].

---

[1] - يريد الإمام -عَلَيْه السَّلام- أن الله تعالى لو جاز أن يُرى بالأبصار لكان جسماً لأن الرؤية لا تقع إلا على الأجسام، غير أن القائلين بالرؤية هربوا من هذه الإلزامات فقالوا إنه تعالى سوف يُرى بلا كيف ؛ بمعنى أنه يُرى تعالى وهو غير متكيِّف بكيفيّة ولا متصف بصفة؛ فيرى في غير جهة ولا مكان، وغير متصف بحركة ولا سكون ولا كبر ولا صغر وعلى غير شكل ولا لون ولا قرب ولا بعد ولا....إلخ. تمت من السيد العلامة/ محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله تعالى.

[بيان فساد قول القائلين بالرؤية]

ومما يدل على كفرهم وإلحادهم، وعداوتهم لله وعنادهم، وضلالهم عن الحق وفسادهم، أنه لو كان في الآخرة على ما ذكر الجهال، وقال به الفسقة الضلال، لم يخل عند ظهوره ونزوله وهبوطه وقعودهم ووصوله من أن يكون لابثاً مستقراً، أو متحركاً زائلاً مستمراً.

فإن كان ساكناً لابثاً: فهو مضطر إلى لبثه وقراره، بعد هبوطه وحركته وانحداره، وحاجته إلى الحركة واضطراره، وإقباله في السماوات وإدباره، وبطلان قوته واقتداره.

ومما يدل على حدث معبودهم، تعالى الله عن كفرهم وجحودهم، أن الحركة والسكون محدثان، وهما بمعبودهم متعلقان، وبجسمه مقرونان متداولان، فقد صح حدثه إذا لم ينفك من المحدثات؛ لأن ما كان بين حالين محدثين، ومكونين بعد العدم موجودين، وكان لا ينفك منهما فهو في الحدث مثلهما، وسبيله سبيلهما، إذ هو مبني عليهما، لا يجد منهما بداً، ولا عنهما معتمداً، فلا بد له من بان بناه عليهما واضطره إليهما.

وإذا كان بزعمهم يجوز عليه الإنتقال، ويلم به اللبث والزوال، فهو ثلاثة مجموعة، متغايرة مصنوعة.

أولها: الجسم الساكن المقيم، الذي هو عندهم واحد قديم.

والثاني: سكونه المقرون إليه.

والثالث: انتقاله المضطر إليه.

وهذه ثلاثة من صنع الله جل جلاله، وعظمت نعمه وأفضاله، فليعلم الجهلة الغافلون، الحماق المتجبرون، أن معبودهم غير الواحد الرحمن، وأنهم في الشرك بالله كعباد الأوثان.

ومما يدل على خروجهم من الإسلام، وأن معبودهم حُجَيْرَةٌ من الأصنام، أنهم زعموا أنه يهبط إلى السماوات، وأنه بزعمهم يوصف بالآلات والأدوات، والحواس المدركات، وإذا كان يهبط ويتدلى، وينحدر من العلو سفلاً، ويقطع بحركته الهواء، ويخرق ما عبر من الأجواء؛ فالهواء أكبر منه وأحق منه بالسعة والأولى، لأن الهواء قد حواه، وتضمنه وغاياه،

وأوضح حدوده وناهاه، وأحاط به وآواه، وستر أسفله وأعلاه، وإذا كان الهواء أكبر منه ويستر جميع الأبصار عنه، فهو أصغر من محله وموضعه، وأقل من مهبطه ومطلعه، وإذا كان هو ومحله على ذلك، وكانا في الصفة عندهم كذلك، فهما إذاً مختلفان، وبالتغاير والتفاضل موصوفان.

فإذا اختلفا فلا بد لهما من صانع خالف بينهما، ودل بذلك على حدوثهما، لأن الأهوية من السماوات إذا حوته، وأحاطت به وتضمنته، فقد زادت عليه وفضلته، وإذا زادت عليه فقد صح نقصانه وصغره، و[حاجته إلى] مصغره وفاطره وخالقه ومقدره.

وكذلك إذا اختلفت جوارحه، وتغايرت أدواته ومصالحه، فذلك دليل على رحمة خالقه، وحكمة مصوره ورازقه، إذ جعل كل عضو منه لسبب من الأسباب، ومصلحة تدل على الله رب الأرباب.

وكذلك إذا كان على كرسيه وعرشه، وسكن عليه بعد حركاته وبطشه، فعرشه إذاً أكبر منه وأقوى وأشد، وأمكن من الأجواء، لأن عرشه ممسكه عن السقوط، والهواء يسلمه إلى الذل والهبوط، فهو على حالين مختلفين متغايرين غير **مؤتلفين**:

أحدهما: عرشه الذي هو أقوى منه على الحلول، لفضل قوة الحامل على المحمول، وهذه صفات العبد الذليل.

فيا لها عقولاً أعميت عن الحق واليقين، واسْتُعْمِلَتْ في الضلال المبين، فنعوذ بالله من الحيرة في الدين، واتباع مردة الشياطين، ونبرأ إلى الله من الجهل والتقليد، وتشبيه الواحد المجيد، بالأجسام ذوات الحدود، وصفات عجزة العبيد.

[بيان التوكل ومعناه]

مسألة: فإن قال ما التوكل؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: حقيقة التوكل اليقين بالله الجليل، ولا يصح اليقين إلا بعد ثبات الدليل، فإذا عرف العبد خالقه، وعرف عدله ورضي عنه، وسلم له، فذلك المتوكل على الله المستوجب لثوابه، الناجي من سخطه وعقابه؛ فمن أراد أن يظفر بمعرفة الله

وتوحيده، ويقر بالله وتمجيده، فليمتحن قلبه بكلامنا، وليصبر نفسه على قولنا؛ ثم لا يكابر عقله، ولا يحكم على يقينه جهله، ويحسن بالله ظنه في كل أفعاله، ولا يتهمه في شيء من أعماله؛ فإن الله عز وجل أحكم الحكماء، وأرحم الرحماء، وإذا كان كذلك فليس يفعل فعلاً إلا بعد اختياره لعلمه بالمصالح واقتداره.

اللهم يا مولاي إني أحمدك على ما فعلت ولا أذم خيرتك فيما اخترت، ولا أقول لك لم تفعل فيما صنعت، بل أسلم لك يا مولاي في كل ما قدرت، وائتمرت بكل ما أمرت، فلك الحمد أن أنعمت علي، ولك الحمد إن ابتليتني، ولك الحمد إن أحييتني، ولك الحمد إن أمتني، ولك الحمد إن أعطيتني، ولك الحمد إن منعتني، ولك الحمد إن شفيتني، ولك الحمد إن أمرضتني، لأني أقر على نفسي بالعجز والجهل، وأشهد لك بالعلم والفضل، والحكمة والجود والعدل، فكيف أحكّم عجزي على قوتك، أو أحكم جهلي على علمك، فكل ما فعلتَ يا حكيم فأنت فيه مصيب فاختر لي بعلمك في جميع الأمور، ولا تكلني إلى نفسي في شيء من التدبير، فإني يا عظيم لا أثق بنفسي، لعلمي بضعفي ومسكنتي، وفقري إلى رحمتك وفاقتي، ولا حول ولا قوة إلا بك، ولا أرجو الخير إلا بأسبابك.

اللهم إني أستحيي من سؤال أحد من العبيد، وأنت أقرب إلي من حبل الوريد، فارحم خادمك وعبدك الذليل العليل، يا واحد يا عظيم يا جليل، ألا تعذبنا بنار الجحيم.

[معنى خطاب الله للعباد]

مسألة: فإن قال: ما منع الله من خطاب العباد بنفسه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: إنما الخطاب هو الكلام المخلوق، وقد أنزل الله كلاماً وبرهاناً وشفاء ورحمة، لا نحتاج معه إلى غيره من الخطاب، لفضل ما جعله في القرآن من الأسباب، فأما هؤلاء الأوباش الأنجاس، فإنهم لا يستأهلون خطابه، ولا يسمعون حكمته وصوابه، ولو أسمعهم كلاماً كما أسمع نبيه موسى -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ- لخلت أنهم لا ينسبون ذلك إليه، لما هم عليه من مكابرة العقول، وتكذيب الكتاب والرسول، ولو سمعوا كلاماً

لنسبوه إلى الشياطين، لمكابرتهم للحق واليقين، ولو علم الله أن في ذلك مصلحة لفعله، وأوجده للعباد ونزله، ولكن علم أن صنعه في الأجسام أشفى، وأبين للعباد وأكفى.

[الحكمة في وعيد الله بالتخليد]

مسألة: فإن قال: ما منع الله من أن يمسك عن الوعيد بالتخليد، حتى يمكنه العفو في الآخرة عن العبيد، ويكون صادقاً في الوعد والوعيد.

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأن الله سبحانه، وعز عن كل شأن شأنه، لو أطمعهم بالنجاة من العذاب، مع ما هم عليه من قبائح الأسباب، [وما يستحقون عليه العقاب، من المعصية والظلم والكفر] فكيف تزيل أيها السائل وعيد الله ليعينهم على [المعصية]، بل حرض لهم في القرآن بالأهوال، إذا أوعدهم أن ذلك أعظم لخوفهم، وإذا عظم خوفهم، اقتصروا من العناد، وهربوا إلى الرشاد، ولطلب الخوف من العقاب، ورجاء لما وعدوا من الثواب.

[الحكمة في جَبْل العباد على الشهوات]

مسألة: فإن قال: لم جبلهم على الشهوات، وفي علم الله أنها تدعو إلى الهلكات، وتوقعهم في الموبقات؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أن الله تعالى بنى الدنيا على أهوائها، ليدلهم بذلك على الاخرة ولذاتها، وركبهم على غير ذلك، ليفهموا ما في الآخرة من النعيم، واللذات والثواب الكريم.

وجه آخر: أنه بناهم على الحاجة وأغناهم، ليدلهم بذلك على ما أولاهم، فالحمد لله على ما أولانا من نعمه، ودفع عنا من نقمه.

ودليل آخر: أنه ذكر عنهم الشهوة للنعيم، لما في ذلك من حكمة الحكيم وجعل من عاقبة ذلك من النسول، التي أخرجها بالشهوة من الأصول.

ودليل آخر: إنما ركبهم على الشهوات ليلهمهم فضلهم، عند تركهم الحرام وصبرهم، مع أنه أغناهم بالحلال عن الحرام، وفرق بذلك بين أهل الكفر والإسلام.

[أسباب الصبر]

مسألة: فإن قال: أليس الصبر عندكم حسن في المعقول؛ فإن قيل: فلم حسن من الإنسان و لم يحسن أن يوصف به الواحد الرحمن؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: إن الصبر لا يكون إلا على التعب والألم والمحنة والغيظ والقسم، وهذه العلل من ضعف الحيوان، والله يتعالى عن الضعف والهوان.

[الفرق بين إحسان الله وإحسان المؤمنين]

مسألة: فإن قال: فما تفرق بين إحسان الله وبين إحسان المؤمنين؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: إحسان المؤمنين للطمع بالثواب، وخوف النيران والعذاب، والمحن والعقاب، ودرء ما لا يحصى من الأسباب، وإحسان الله تفضل بالخلق على المخلوقين، وتكرم بالرزق على المرزوقين، لغير حاجة منه إلى خلقهم، ولا ضرورة ألجته إلى رزقهم؛ فالحمد لله الذي أحسن إلينا وأسبغ نعمه علينا.

[هل تصح الأفعال من الجمادات]

مسألة: فإن قال: فهل يصح للجمادات فعل من الأفعال، ويجوز ذلك في الإعتقاد والمقال؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لا يصح الفعل من الجمادات إلا على مجاز الكلام، فأما فعل الطبائع فمن ذي الجلال والإكرام، آيات إنما استقامت أرواحها بطبائع الأطعمة والشراب، وذلك من حكمة رب الأرباب، ومصلح الأسباب، لأن الأغذية لا تعقل عجائب التدبير، ولا يتم إصلاح الأمور بالأمور، وعجائب الحكمة والتصور إلا الله العليم الخبير.

ألا ترى إلى ما صنع الله في غذاء الأشجار، بما نزل في الأهوية من الأمطار، وأجرى من العيون والأنهار، وصلاح الحيوان والثمار، جعله في الأشجار مداخلاً للمياة، ويجعله في الأشجار بمنزلة الحلوق والأفواه، فجعل لكل حبة من الثمار مسقى، وحله للماء طريقاً واحداً، وذلك بلطفه في العروق، وجعلها بمنزلة الحلوق، وليس من طبع الماء أن يصعد

علواً، ولا يسمو إلى أعالي الأشجار سمواً، وإنما طبع الماء على الثقل والإنحدار، وعلى الثبات في الأرض والقرار؛ فلما رأيناه يصعد إلى نشوات الأغصان، علمنا أن ذلك من الواحد الرحمن.

وكذلك فعل سيدنا عيسى -صَلَّى اللهُ عَلَيْه- فليس منه وإن نسب إليه، وإنما فعله الحركات والسكون والضمير، والتقليب للطين والتقدير، وعلى ذلك فلا يوجب الحياة بعد الممات، ولا يوجد الأرواح في الجمادات، وكذلك سكونه وحركاته فلا يردان إلى الميت حياته، ولا يكون رد الحياة من الروح أبداً من فعل الطاهر المسيح.

فإن عارض بعض الملحدين أن توجد النطف من بين الأصلاب والأرحام، ليكون ذلك بَيِّنٌ للأنام، وأنفى للتشبيه والأوهام، ويوجد الزرع في الأرض يبسا، ويحيي الموتى على غير يد عيسى؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأن الله سبحانه إذا تبين حكمته وإظهار إحسانه ونعمته، فجعل كل معنى من خلقه لمعنى لإصلاح ما صنع وبنى، ولا يجعل الشيء للمصالح إلا عالم بإصلاحها، لما أراد من بيان الحكمة وإيضاحها، ولو أحيا الموتى على غير يد نبيه، وحبيبه المصطفى ووليه، لما ثبتت لهم رسالته، ولما قامت عليهم حجته، وإنما أظهر الله ذلك على يديه، ليركن جميع العباد إليه، ويعتمد أولي الألباب في دينهم عليه.

[الحكمة في التعبد بالصلاة]

مسألة: فإن قال فلم تعبد الله الخلق بالصلوات، وكلفهم ذلك في جميع الأوقات؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: وإنما تعبدهم الحكيم بالخشوع، وأمرهم بالتذلل والخضوع، ليشغلهم به عن الفواحش والمنكرات، وينهاهم الخوف عن الظلامات، فكل ما شغل عن الظلم والفساد، ففيه مصلحة لجميع العباد، وكذلك القول في الحج والصيام، وغيرهما من شرائع الإسلام.

تمّ الكتاب بحمد الله ومنّه فلله الحمد كثيراً بكرةً وأصيلاً.